رواية « قدر يلهو » : صياغة جديدة

التجربة التي قام بها الدكتور شكيب الجابري في الاربعينات كانت فريدة من نوعها في عالم الرواية .

وضع رواية اسمها « قدر يلهو » تجري حوادثها في برلين وبيروت بين طالب طب عربي وفتاة المانية من همبورغ ، اكبر مرفأ في العالم واعظم ماخور في اوروبا. فاذا انتهت الرواية مروية على لسان علاء ، اردفها الجابري برواية تاريخية تروي الاحداث ذاتها التي قرأناها في « قدر يلهو » ، لكنها مروية هذه المرة بلسان بطلة الرواية ايلزا ، وبعنوان « قوس قزح » .

واذا نحن أمام قضيتين تكادان تكونان واحدة في احداثهما ، لكنهما جاءتا مختلفتين كل الاختلاف ، فيما عدا ذلك ، لغة واسلوبا ، وحساسية ، وتفكيرا ، وعاطفة، ولاول مرة في عالم الادب نسمع القصة مروية بلسان « المرأة » بعد ان سمعناها مروية بلسان « الرجل » ، فاذا نحن امام عالمين مختلفين ، رغم تقاربهما . ونلمس بدقة مثيرة الفرق الكبير بين نظرة الرجل ونظرة المرأة الى الموضوع الواحد .

وكانت التجربة على جدتها ، موفقة اهتزت لها افئدة قراء الرواية العربية في ذلك العهد .

وجاء الجابري الى لبنان بعد ان طوف سنين طوالا في الغرب والشرق . ورغبت اليه بعض دور النشر باعادة طبع روايتيه « قدر يلهو » و « قوس قزح » بعد نفاد طبعاتهما القديمة . فابى مسايرة رغبة الناشر والقراء . وحجته في ذلك ان الذوق الادبي يختلف ما بين عهد وعهد ، وما كان يستسيغه القارىء العربي في الاربعينات او الخمسينات من نثر او شعر ، من قصة او رواية ، اصبح بعيدا عن ذوقه في هذا العهد ، وقد بات بيننا وبين الثمانينات شهور قليلة .

ويصر الناشرون على ان روايات الجابري دخلت في أدبنا الكلاسيكي وانه لا بد أن يقرأها أدباء اليوم كما قرأوا عنها في كتب الادب والنقد .

ويأبى الجابري ان يقرأ شباب اليوم ادبه محنطا . ان الجابري لا يزال على قيد الحياة ، وفي فورة من فورات الشباب الثاني .. فهو لا يؤمن بان هنالك شيخوخة ، فالشيخوخة في رأيه استسلام ، وتخاذل وجبن لا يرضاه . اما الحياة في نظره فسلسلة من التطورات البهيجة ، والوان من الشباب المتجدد ، اسماها وأرقاها والذها عهد النظرة الشاملة والنفس المرتوية . اذ يسبح الكاتب في جو مشرف ، مستقطب ، يرى منه الحياة ، بنظرة أوسع ، وحسّ أعمق ، ومعرفة أعم ، وصدر رحب ، وقلب عطوف .

ويبتسم الجابري اذ يتحاور ومحرر « الاداب » بشأن روايتيه القديمتين ، ويتفتق ذهنه عن التجربة الفريدة الجديدة التي يريد ان يقدمها لادبنا العربي المعاصر ، ويقول :

— «سنعيد نشر « قدر يلهو » لكن بحلة يرضى عنها ذوقي وميلي الجديد . القصة ذاتها والاحداث ذاتها والمسرح ذاته . لكنني لن اقف عند « الازياء » الشائهة، التي تجاوزها الزمان . كريستيان ديور دالت دولته وتقاومت ازياؤه رغم تفوقها القديم . سأكتب القصة ذاتها كما ارى ان يكتب القصص الحديث » .

ويدخل لحظات طويلة في صمت ، ثم يبتسم ويقول :

— لن اكتب « قدر يلهو » ، باسلوب الامس .. ولا بأسلوب اليوم .. سأتخطى هذا العهد .. سأكتب كتابي باسلوب الغد البعيد .. وسيرضى عنه ذوقي وسيرضى عنه مفهوم الرواية كما اراه الان واحبه .

كل ما اتمناه ان تسمحوا لي بقفزة سريعة الى شارع الكورفرستندام ببرلين .. استعيد على شرفة من شرفاته مشاهد « قدر يلهو » في حلتها المستقبلية كما تتراءى لخيالي منذ مدة . اضيف اليها مواضيع كثيرة واحداثا عديدة والحانا جديدة تجنبت اثباتها في قدر يلهو في السابق . »

وهنالك، ببرلين ، على شرفة مطلة على مسرح قصته القديمة تسارعت فصول الرواية ، ونمت ، وادخل فيها الوان ومواقف ومواضيع مثيرة . وعادت من برلين « قدر يلهو » بحلتها الجديدة وشكلها الآسر . وتجربتها

الفريدة ، وتلقفتها « دار الآداب » لتكون الدار الاولى في العالم العربي لنشر هذا الاثر الجديد .

تجربتا الجابري جديدتان لا بالنسبة الى الادب العربي وحده بل بالنسبة الى الادب الروائي في العالم . اذ لم يسبق لنا ان قرأنا شيئا يذكر بتجربة الجابري الثانية الا في بعض السنفونيات الموسيقية التي تكتب اليوم مجددا بلغة موسيقى اليوم .

والرواية اليوم تسير بخطى وئيدة الى عالم النشر في منشورات « دار الآداب » .

لكننا آثرنا ان نستبق تاريخ النشر فاجتزأنا من الرواية فصلا جديدا ادخل عليها ، ننشره في هذا العدد ، بانتظار قراءة الرواية كلها قبل مطلع الخريف .

اننا نطرح هذه التجربة المثيرة الجديدة امام النقاد والقراء ، منتظرين رأيهم فيها وتقييمهم لها .

ان في جعبة الجابري عددا من الروايات الجديدة ترجو « دار الآداب » أن توفق الى نشرها بعد أن تعيد نشر آثاره القديمة : « نهم » و « قوس قزح » و « وداعا يا افاميا » و « هكذا سنقاتلكم في فلسطين ».. وسنرى اي الكاتبين ابعد اثرا في قلوب الناس : الجابري السابق، ام جابري اليوم والمستقبل .

« الآداب »

فصل من الرواية الجديدة

الريح تنفخ قارسة . ورذاذ المطر يتطاير على غير هدى ؛ ويرشدني باسراب من لآلئه الندية . يحط بعضها على حاجبي ، ويرف بعض على هدبي . وفوق خدي خطوط جارية من ذوبها البارد .

سقف السماء قريب ، وطيء كما أحبه . انخفض ضبابه ، فغمر أعالي الابنية ، وانسدلت سجوفه تجر ذيولها على اسفلت الطريق .

اما الشارع المقفر ، فسكون كله . حول مصابيحه هالات واجفة لنور ضئيل ، لا يبدد من ظلام الليل الا أقله .

تكاد رهبة السرى تدركني . لولا يقيني اني اسير في اكبر شارع ببرلين ، في الكورفرستندام . وهو ، على تأخر الساعة ، لا يخلو من واجهة هنا ، وواجهة هناك ، تومىء باضوائها المثيرة . ان الحياة ، ان اطبقت أجفانها في المدينة على اعمق النوم ، فانها ههنا في انشط اليقظة وامتع اللذات .

وهرة تسعى . وسيارة تمرق . تمزق عجلاتها الغشاء المنساح رقيقا على اديم الشارع، وتنثر مزقه السائلة بهسيس مثير سريع .

وغير بعيد ، على متناول بصري ، شخص مقبل . يسير باتجاهي ، على مهل ، كأن هذا الجو لا يضيره ولا يعنيه .

حثثت خطاي ، لما تبينتها انثى .

ظهر الكلال على ذراعيها ، فوقعتا بغير حول على جنبيها ، تهتزان بغير اتزان ، كدمية يلهو بها صبي عابث .

وكان لقاؤنا في مخروط النور الذي غمرنا به مصباح كريم .

وجه صبيح رغم انقباضه . وتحت قلنسوة المطر كومة من شعر ، تخيلتها ، لما رأيته من شوارد ذؤاباتها المبتلة الطفلة ، ذهبية اللون مشعثة كشعر العرائس .

لكن المحيا الفتي لم يخل من بقاع بنفسجية اللون ، مريبة .. أمن فعل ماجن فاجر ؟.. أم هي قرصات انامل الليل ، ولسع سياط الريح، اذ تعلن للملأ ان بريد الشتاء قد اذن ، ومراكب الثلوج اوشكت ان تنحدر من شاهقات ملاعبها ؟

* * *

ــ آنستي استمحيك عذرا ان اعترضت سبيلك . فقد يشفع لي هذا النوء المتقلب ،لتقبلي صحبتي حتى تبلغي غايتك .

قالت بصوت مستو ، لا لون له :

ــ أخاف عليك التعب .

قلت ، وقد رجحت في ذهني كفة الامل :

ــ تقطنين بعيدا ؟

ــ اجل ، بعيدا ... بعيدا جدا .

وكنا قد خطونا خطوات مبهمة الاتجاه حين خطر لي بشأنها خاطر . فقلت ، وفي صوتي مسحة من دعابة :

ــ أحب شيء الي أن أنطلق في الليل الكبير ، تحت شلالات المطر ، في دوامة الزوابع ، عبر دهاليز الظلام، يقود خطاي فحيح افاعي البرق ، ويملأ سمعي هزيم معامع الكون الهائج .

ارتسم على ثغرها مشروع ابتسامة ، وتمتم صوتها عميقا رخيصا ، كأنه بدأ يستيقظ :

ــ شاعر ؟..

ــ كلا ، لست بشاعر.

وكدت اردف قائلا : « اجل ، لست بشاعر ، لكنني احب موسيقى الطبيعة بجميع الحانها ، تنقير المطر ، نياح الرياح ، قعقعة الرعد وقهقهة الصواعق ...

أحب مارد الليل حين يخرج من خمارة السماء ضائع الرشد معربدا ، قد تعتعته الحانة ، وفجرت الحانه .

قالت بصوت خافت تحدث نفسها :
— رائع !
ثم اردفت تقول :
— السيد الشاعر ليس من ابناء برلين ؟
قلت ضاحكا :
— السيدالشاعر ، ليس بشاعر ، وهو ... من بلد بعيد .. بعيد .. فيه شموس ورمال ، واشياء كثيرة، علاوة على قوافل الجمال ...

واشفقت عليها فقد ابتلت اكثر مما ينبغي . قلت :
— أترين الى الحانوت المنير ، هناك ، في شارع التاونسين القريب ؟.. ما بيننا وبينه سوى دقيقة .. وانا جائع .. ان فيه مما تشتهي الانفس .. هلمي بنا ففي دفئه يتم بيننا التعارف .
وفي أقل من دقيقتين كنا فيه .

كان فيه من كل شيء يحبه أبناء الشمال : الصومون الاسكندنافي المدخن ، والاسماك المجففة ، والقديد من كل نوع وقياس ، والاجبان ، والالبان ، والمخللات المتراصة في قواريرها ، من خيار هش ، وفقوس حامض ، وبصل لاسع ، وتوابل شتى يثور اللعاب لمجرد رؤيتها ... كل ذلك مكسوا بضباب فاغم من بخار دست كبير ، تتهادى أرتاله بطيئة في سماء الحانوت ، مختالة بما تبيحه للوجوه المشرئبة من ريحها الشهي ودفئها السخي .. فاذا أدت للجائع حقه ، تخففت من أثقالها وانطلقت في الجو ، رشيقة الخطو ، كأنها وضباب السماء على ميعاد .

اشرت الى بناية في الصف المقابل وقلت للفتاة ، وفي يدي كيس من ورق حشوته بأطايب الحانوت :
— أترين النوافذ البيض ؟
— ....
— هناك أسكن .. غرفتي ، كما ترين ، غير بعيدة .. ما رايك لو مكثنا فيها ريثما تصحو السماء ، وأثناء ذلك نتناول طعامنا ، أمام نار المدفأة . ونهيىء الشاي بأيدينا ونحتسيه على مهل وهدوء وتحكين وأحكي ...
قالت ، حائلة الصوت :
— لن تصحو السماء . (بصوت هامس ، كأنها تخاطب نفسها ، أردفت :) أجل ، لن تصحو السماء أبدا ..
قلت بلهفة انطلقت من أعماق قلبي :
— أرجوك !
ولم تلبث أن تحركت قدماها حيث أشرت، مقتربة ببطء من وجاري .

* * *

برلين نائمة .
ثلاثة ملايين من سكانها يغطون في سبات . مدينة أحلام ... أحلام زاهية . أحلام باكية . أحلام آمال وجشع . أحلام رعب وضيق وقلق .
نيام يستحثون الليل لينبلج عن فجر جديد ، يستمتعون بمكاسبه ... ونيام يتشبثون بأذيال الليل ، ولو قسا عليهم بأحلامه .. النوم وليتهم والغيبوبة نعيم ...
النوافذ مغلقة . في كل بيت قصة . على كل وسادة ورشة ، ورشة تصنع الرؤى ، لا تكاد تنشئها حتى تتبعثر .
مسرح أوهام الليل هذه المدينة . وكل مدينة . وما حياة نهارها بأقل وهما .
حتى « حديقة الحيوانات » الهائلة ، غير بعيد من هنا ، في غابة التيركارتن — القريبة ، أوت الى منامها ، عدا أسد يزأر فيثير نيام الحديقة . ثم يعود السكون ، فلا حسّ ولا نأمة .

أما الارانب ، وصغار الضواري ، وروامس (*) الغابة ، فالليل نهارها .. هو الستر ، وبه المعاش ، وفيه يحلو الحب .
وهذا الجرذ المتحفز ، الرهيب ببصيص عينيه البراقتين ! سيد الكهاريز بلا منازع ... أتراه يبادلنا ، لو كان يدري ، قرفا بقرف ، واحتقارا باحتقار ؟!

لعله أحسن حالا في كهريزه من بعض سكان المدينة .. انه ان جاع ، وجد .

في المنعطف القريب ، على بعد قليل منا ، رجل يخرج مترنحا من الـ « كلوكن شتوبة » أي « حانة الاجراس » لكنه لا يوحي بشيء من حيوية الاجراس وفتوة جرسها . فيه شيء يوحي بالفراغ .
كيس منهال ، قربة ينسرب زيتها .
وغانية نفيسة تأخذ بذراعه ، تحاول أن تسند التسعين كيلو وتردها الى بعض وقارها . وعبثا تحاول . نفيسة حقا هذه المخلوقة الشقراء ، وعلى غاية من الاناقة لو كانت الالمانيات يدرين حقا ما الاناقة ..
صوته شاحط . عجوز ، متفسخ ، فيه نبرات من صوت فرخ ديك مراهق ، اذ يرتفع به من طبقة الدو الى طبقة الصول دفعة واحدة ، بأغنيته تلك العربيدة التي ما فتىء يصك بها سمع السكون :
لس اونس نخصال ترينكن ! ترينكن ! ترينكن !
(دعينا نعاود الشراب ! الشراب ! الشراب !)
كل شيء فيه قبيح . وكل شيء فيها جميل . ورغم ذلك تلصق به وتحنو عليه واياه تريد ...
هو من بلاد الغرب ، وأنا من بلاد الشرق .

(*) الروامس : صغار الحيوانات تخرج في الليل من أوكارها .

أنا مثله ، وهو مثلي ... وكلانا يدلف في المدينة بالليل ، بحثا عن مزيد من الحياة .

النهار المشغول ضيق ، مقتر ، شحيح . لا يتسع لجوعنا ...

وجوعنا غول . غول أكول ، يضجّ صفيقا ، ويعول ... مهما نلقمه لا يشبع .

مدمن اقلاق ، وعبد لهو وترف . يستعذب خوض معامع اللذات برداء من كساء الليل ... سواد الليل قماش سهرة الحياة . هو السموكنغ الابدي ، لا تكتمل الا به أعراس مجوننا .

تلفت نحو الزميل البعيد ، استاف غانيته .

كلانا شبه رامس .

ولأمثالنا تخرج في الليل ، من أوكارهن ، بنات الليل .

في الليالي الصافية ، في الليالي الباكية .. في برلين ، في بكين ، في طهران ، في سايغون ، في باريس ، على ضفاف النيل ، على الشاطىء الازرق ، والساحل الزنجي ... لا اختلاف بيننا هنا ، وهناك ، وهنالك ... جوعنا واحد ، قديم قديم . جياعا خلقنا ، وجياعا نموت . ومن شاء أن يمنع ، فليخنق الخلايا ، وليقطع نياط الغرائز من جذورها .

لكني ، في الحقيقة ، لا أزال أخاف بنات الليل ، وتعاف نفسي طوارق الرصيف الضامرات ... ورغم نفوري ، ان مررت بهن ، فلا بد لبصري أن ينـدسّ فيهن ، أن يغل بينهن ، أن يقتحم سرهن ، أن يخطف منهن شيئا ، أي شيء فيه اثر الانوثة .

البصر ذئب يستمرىء لحم الخطيفة ، ولو كانت مجرد رمز وخيال صورة .

وفي عيشهن متاحف صور ، وخطايا تثير . حمأة وحل ، ومتاهة من طين .. وما أعمق ما تستعذب غرائزنا الاستحمام في الوحلّ ، والتفرج على شطآنه ، والغوص فيه أحيانا ، ولو بالفكر دون الجسم ..

كلما تخمر وتركز وفار بدنس الخطايا ازداد نكهة وطيبا وجذبا ، وشاق نفوسنا لو تعرت له لحظة وانساقت اليه .. ففي نفوسنا وحل التخمر قديم ... بيننا وبين الطين قرابة ... لا ريب في ذلك . لا ريب في ذلك .

وعلى السلم ، الى مسكني في الطابق الاول ، تصعد لقيتي بخطى شاحبة ، منخفضة الرأس ، لا تحكي . وخلفها أسير أنا ، هادىء النفس وقورا . لكن بصري لا ينى يبعثر أشياءها من خلف ، بفضول تارة وذهول تارة .

مطرها العتيق ، ذو الماضي الانيق ، صفحة من هويتها الغامضة المثيرة .. لكني تعب مرهق . يتقاطر عليّ النعاس من كل جانب ، فلا وقت لاستجلاء كامل الهوية .

أحد جوربيها ملتف على ساقها . أسفله مبتل قاتم ، وأعلاه أقل ابتلالا وأخف قتوما .. الجورب الملتف على ساق امرأة يثير بي دوما شفقة مشمئزة . فاذا اكتمل بؤسه بالبلل ولطخ الطين ، فأنا حيالها انسان من جليد ، أو كذلك كان يخيل اليّ حتى تلك الساعة .

ليتني لم أعترض سبيلها ، ولم أتدخل في شأنها ... خالق الناس أدرى بمصير الناس ... وأنا نعسان ، نعسان !

* * *

غرفتي مربعة فسيحة . يكسو جدرانها ورق وردي اللون ، نقشت عليه طاقات من الازهار الكبيرة ، كانت تبدو لعيني غاية في الاناقة . وعلى الجدران نسخ رخيصة الثمن للوحات شهيرة . والارض مغطاة بسجادة ممراعة الوبر ، تبتلع خفق النعال ، وتخفف من صياح الارضية الخشبية اذا تكاثر فوقها الصحاب ، واشتد عليها وطء اقدامهم . وجلهم من اتراب الجامعة ومواطنيّ من طلبة العرب في برلين .. ونسق الرياش، على قلته ، تنسيقا لا يخلو من لطف ، تاركا للحركة مجالا واسعا في وسط الغرفة . وهنا وهناك اناء من نحاس دمشق القديم ، فيه عيدان من النرجس . وعلى المنضدة ، قرب السرير ، مصحف صغير يستهوي الاجانب من ضيوفي بنقوشه الذهبية .

لكن ضيفة الليلة لم تلتفت الى شيء مما حواه المكان ووقفت داخل الغرفة ملوية القامة ، حيرى . ولم تلبث أن تحركت مبتعدة عن السجادة ، كأنها فطنت الى تنافر حذائها وهذا البساط الفاره ، المدلل كقطة سيامية .. أو كأنها خافت عليه نقاط الماء تنحدر من آن الى آخر من ثنايا ذاك المطر الذي تشبثت به فلا تخلعه ، كأنه الحصن الذي تتقي به خطرا تخافه .

لم يكن في الغرفة مدفأة . بلْ كان هنالك ، في الواقع ، مدفأة قديمة ، مغلفة الجوانب بنوع من القيشاني الابيض . لكنها لطول ما أهملت استعمالها ولكثرة ما نضدته على رفوفها وفي تجاويف جدرانها من تحف الشام الصغيرة، غدت أشبه شيء بمتحف شرقي صغير.

وأنا من هواة الشتاء ، احب البرد والامطار والزوابع والصواعق والرياح المعولة . ولا أجد في روائع الموسيقى العالمية شيئا يدانيها نفاذا ولا انسجاما ولا عمقا ولا جمالا .

وكان من الذ اللذات عندي أن افتح النوافذ ، ثم انسلّ في فراشي ، لارسل سمعي الى الخارج ، يلملم لي أصوات الشتاء . عنيفها وخفيفها ، ما مال منها الى

المرح ، وما مال منها الى الكآبة والوحشة والافزاع . لا افراط بشيء منها . وكلما كان اللحن أقدر على اشاعة رعشة البرد في كياني كان آثر عندي وأحب الي .. ولكم ترنمت ، ولا أزال ، بأبيات من الشعر لفرلين تهزني الى أعماق أعماقي ، أرددها بحنين لذيذ ، لا أرتوي منها ولا يعلو عليها في نظري أي شعر في الدنيا :

Les Sanglots longs
Des Violons
De l'automne
Remplissent mon âme
D'une langueur montone

وترجمتها التقريبية ، التي تضيع الكثير الكثير من جمالها وروعة وقعها ، هي :

العويـــــل
الطويـــــل
عويل أوتار الخريف
تملأ روحي بضيق
ضيق
عميق
لطيف

وكان شبابي في فورته كفيلا بملء فراشي بالدفء ، ولو في أبرد الاصقاع .

وقرقرة الشاي ، فوق المدفأة الكهربائية ، كانت النغمة الحلوة التي لا بد منها لتبلغ ألحان الشتاء أقصى عطائها .

وغنت لنا الشاي في تلك الليلة ما شاء لها التغني . وأطلقت اريجها ، لتخلق حولنا الجو الذي يبدد الوحشة ويزيل حواجز الكلفة .. لكن وجوم الفتاة الغامض ما كان ليزول حتى يعود فيتجدد .

وشغلنا بالصومون المدخن والتوابل والحلوى . وجاءت كؤوس الشاي ، تشيع بدفئها ، في عروق الفتاة ، خدر النوم .

قالت : ـ اسمي **ايلزا هيلدا برانت** .

وقدرت ان النعاس لا يسمح لها بأكثر من هذا .

فقلت لها :

ـ أرى الجو لا يزداد الا سوءا ، وقد استبد بك النعاس ، وأنا أسوأ منك حالا ، وفي غرفتي سعة . ذاك سرير تنامين عليه ، وأنام على المتكأ بكل راحة .

وقبل أن تجد ما تجيب به ، ألقيت اليها ببيجامتي ، وأشرت الى باب صغير يتصل بغرفتي اشارة أدركت منها ان هنالك حمام . وخرجت الى بهو النزل . ثم عدت بعد فترة طويلة .

واذا النور مطفأ ، والغرفة ساكنة ، تنيرها حزم من شعاع تسربت اليها مخففة . من مصابيح شارع التاونسين .

كانت الاحلام تنثال علي هنية بالغة الطلاوة .

رأيتني واقفا على ظهر سفينة مزخرفة تمخر البحر بسكون . تنبعث من جوانبها في غياهب الليل ألحان ناعمة فتملأ الكون بسحر غامض .

وغير بعيد ، على السفينة الثانية ، وقفت ايلزا هيلدا برانت . فما رأيتها حتى فهمت اني أمسيت ، منذ الساعة ، بطلا من أبطال لونغرين ـ أوبرا فاغنر الشهيرة ـ وما لبثت السفينة أن امحت لتلقي الي بالبطلة الفاغنرية ، وقد خرت على ركبتيها ، منشدة بصوتها الشجي لحنا أوحى الي انه لبيتهوفن :

« رب لم خلقتني ولم أك شيئا ! » ..

وسعت أصابعي في شعرها الناعم ، واذا بضفائرها العقيقية اللألاء ، تهدر أمواجا من دماء قانية ، لم تزل تتمدد ويشف لونها ، حتى غدت حقولا مذهبة السنابل ، يهطل المطر مدرارا من مآقيها ، والسماء صافية زرقاء ، وكلما قطرت من سنبلة قطرة اكتوت يدي بلظاها .

وما لبثت آلاف سنابل الحقل أن رددت ، بعضهن بالعربية ، وبعضهن بالالمانية ، على نسق عجلات القطار السريع :

ـ دنكي شون ، شكرا لك . دنكي شون ، شكرا لك . دنكي شون ، دنكي شون .

انتفضت جالسا ، مشدوه الفكر ، ضائعا بين حلم وحقيقة . كان ما أحسسته على يدي من قطرات السنابل المطرة ، قطرات دمع صحيح . ولامست شفتا الفتاة ظهر يدي في لثمة مبتلة هببت لها من فراشي ، بصوت غريب ، كأنه أصابه مس :

ـ من ؟.. من ؟.. ما الامر ؟

وكانت هي ايلزا هيلدا برانت ، ايلزا شارع الكورفرستندام ، لا ايلزا فون برانت . أميرة اللونغرين ، التي خلدها فاغنر بموسيقاه الهائلة .

كانت ايلزا غرفتي ، لقيتي في الشارع بعد منتصف الليل ، هي من جثا لصق متكئي على الركبتين . تكرر شكرها المخضل بالدمعة ، وتقول :

ـ كان لـ (ذلك) مذاق طيب يا سيدي ..

صحت متهدج النبرة ، الى حد القسوة :

ـ ماذا تعنين بـ (ذلك) ؟!

قالت وفي صوتها استحياء :

ـ ذلك ... الطعام الذي أصبته في بيتك .. كنت جائعة .

اطرقت لحظات ، ثم أردفت تقول :

ـ أربعة أيام ، لم أذق شيئا .. عفوك ، سيدي ، عفوك ، ان خانني الجلد ، فأيقظتك ، من حيث لا أريد

لك الا الراحة .. عظم عليّ أن اتصبر حتى الصباح فاؤديك حقك من شكري !

تبا ! تبا ! تبا ! الا لعنة على البشر ! ويا لعار المروءات !

بودي أن أبصق ، أن أصيح ، أن اشتم ، أن أهشم انفا ، أهتم فما ، أهيل قمامة الالفاظ البذيئة على .. على .. على كل شيء ، على كل انسان ، على كل مرفه ، ومتخم ، وشبعان ، على كل وحش من وحوش هذه الغابة البشعة التي تجمع على رصيف واحد ، ألوف المشبعين ، وأفرادا من الناس يحملون جوعهم في امعائهم ، وليس من يأبه !

قلت بصوت كامد :

ـ أين كنت تنامين ؟

ـ كان لي غرفة . فلما عجزت عن دفع أجرتها ، اضطرت صاحبتها الى تأجيرها لغيري ، لضيق ذات يدها . فلجأت الى المتنزهات وأطراف التيركارتن القريبة من الشوارع ، لكني كنت لا اكاد أغفو حتى توقظني عربدة سكران أو تهامس مريب ، أو نعيب بومة مذعورة . واخوفها عندي صفير العسس وحراس الغابة ، اذ خيل اليّ اني ان وقعت في أيديهم فمصيري النظارة أو ما هو أدهى . وقد تحرك رؤيتي فضول احد المارة ، فيقبل عليّ . ولا يزال بي ، يسأل ويتودد ، حتى أفضي اليه بأمري . واذا هو انسان كريم وصديق نصوح . فاذا تبعته ، انقلب تاجرا يساوم . فأنكص على عقبي . وأنا أرى الجوع أكرم من لقمته . ونوم العراء أرحم من مثواه .

ـ أما لك أهل ؟

ـ حديث يطول ... آه ، سيدي ، عفوك ! غفرانك ! أما كفاني ما أقلقته من راحتك .. انني حمقاء ، الف حمقاء ... ليتني لم أقلق نومك ... رباه ! أي شيء فعلت ؟!

يا لهذا الصوت ما أدفأه !.. دفؤه ملون ، دفقة من عطر .. شيء كالبنج ، لكنه يخدر وينشي في الوقت ذاته ..

أين كانت الوانه منذ ساعة ؟.. زوبعة الشارع أطفأت سراجه ، فبدا كامدا ، خامدا لا حياة فيه .

وتحركت تريد العودة الى سريرها ، فامتدت يدي ، من تلقاء ذاتها ، تبحث عن احدى يديها لتضم أناملها برفق .

وألمت بي رعشة خلت معها ان برد الغرفة ازداد . فطفقت عيناي تبحثان عن مصدر البرد . لكن النوافذ كانت مغلقة ، خلافا للعادة ..

وأردت أن اشجعها لتمضي في حديثها ، فقد قضي الامر ، وطار نومي ، ولن يعود بأي حيلة . وأولى لي ولها أن نمضي فيما نحن فيه من حوار . فيخف ما في صدرها ، وأطمئن الى ختام القصة بما يهدىء بالي .

لكن صوتي كان قد خولط ، وشابته بحة ، فبدا غريبا ، بل اوشك أن يكون مريبا ، فخفت أن يتنكر لقصدي ، فتؤول نبرته التأويل الذي لست أرضاه .

فرفعت يدي عن يدها . وطلبت اليها أن تمضي في حديثها ، بنبرة أقرب الى الامر منها الى الرجاء .

وكنت متيما بكلمات تجري على لسان بنات برلين مرددة متكررة بموسيقية فاتنة . وكان أعذبها عندي لفظة « بته » ومعناه « رجاء » .

لكن هذه اللفظة الحلوة اكتسبت معاني من الرقة جديدة على لسان ايلزا :

ـ بته ! بته ! بته !

بدات أسكر .. عاد الوسواس الخناس ، يصفر في عروقي ، كدأبه كلما اختلى رجل وأنثى ..

وشتّ سمعي ، وتوزعت الجمة وعيي ، ففي كل صوب منها لجام يشده ويحثه ، ويبتعد به من حديث الفتاة الى شؤون أخرى من شؤونها .

دار الآداب

تقدم

الطبعة الجديدة من مؤلفات

روجيه غارودي

★

● **ماركسية القرن العشرين**
ترجمة نزيه الحكيم

● **منعطف الاشتراكية الكبير**
ترجمة ذوقان قرقوط

● **البديل**
ترجمة جورج طرابيشي

● **مشروع الامل**